الرسالة السادسة

تقرير ميدانى

بقلم

محمد أحمد الرَّاشِد

تقرير ميداني

حين يبلغ الداعية أشده، ويبلغ أربعين سنة: يبدأ يفهم الحياة حقًّا، ليس قبل، ويرى قسمة الله تعالى العقول والهممَ والقلوب والنفوسَ والأخلاق على الناس والدعاة كقسمته الأرزاق، ويبدأ وعى بعض سر الحكمة الربانية وجريانها واسترسالها، ورؤية قرائن الخير والشر فى الأقدار، وتكون له عين نافذة تمنحه موازينَ بصائر وفكر حرائر.

إنه طول الأيام، وتوسّع المراقبة، وتكرر الأشخاص، وتنوع التجريب: ينقل الداعية إلى نظر جديد ليس يملكه الشاب المبتدئ، بل ولا الذى توغل إلى المنتصف، ويقتنع حينذاك بوجوب ترك الحدّيات الجازمة، والعاطفيات الحالمة، والقانونيات الجامدة، ليستبدلهن بقلب كبير رحب الأرجاء يستوعب كل من هنالك، فيمد كف المصافحة، ليس إصبع الاتهام، ويتبع سد الذريعة، لا السنّ بالسن، ويعرف نُبل سبق الرحمة الغضب.

هى الحياة، لا يحياها حق حياتها إلا مَن يفهمها..

أهلها: شجاع ومنسحب، وكريم ومحاسِب، وذكى وبطىء، ومبتكر ومقلد، وطموح ومتئد، وصبور وجزع، فهُم: متعَب وسعيد، ولاهث ونائل، فهُم ثانية: مُعين ومستعين.

وواجب قلب (العَين) أن يسع كل هؤلاء، وأن يعين أهل الإعانة على إتمام إحسانهم، وأن يرفق بالمحصَر المحدود، والمهموم الحائر، يعينهما على اجتياز الحدود الآسرة، والاقتباس ممن فضله الله بالعلم والمكارم تفضيلاً.

الصواب يقال له: صواب، والخطأ: خطأ..

يقالان تربية وتعليماً وإرشاداً، ليكون الموفق اللاحق ـ إذ يصل ـ قرة عين للأعيان، وسبب سرور للسابقين، به يأنسون، وبوصوله يبرهنون على أن سُنة السير ماضية، ولئن أحجم فاتر فتوقف فإن لغيره الوثبات.

ميزهم عبد القادر الكيلانى رحمه الله، ورأى كيف:

(يُصطفَون على أهاليهم وأهل زمانهم. تتميز معانيهم، وتتنور مبانيهم، ولهذا

فارقوا الخلق، وزهدوا فى المألوفات. ساروا إلى قُدّام)[١].

وهم الذين يحبهم الله تعالى، ويأمر ملائكته أن ينادوا فى الناس: أنى أحببتهم فأحبوهم.

نبضٌ ووَمضٌ.... يحددان هويتنا

وعلى طرف آخر: ثَمّ نقيض، لا يتحمس له المقابل، لأن شخصية الداعية إنما هى هبة من الله تعالى، يهب من يشاء الشخصية المحبوبة، ويجعل الناس والدعاة فى فتور وصدود عن آخرين. ورب داعية نعاشره فنجد أبعاد تصرفاته وأخلاقه وأذواقه دقيقة حتى السنتيمتر، بل حتى الملى سنتيمتر، لكنه ثقيل الظل لا تألفه النفوس، وكأن النية هى التى تميز عمل هذا عن هذا فى روع المقابل الناظر المعامل، بعد إذ استويا فى الظاهر، ثم يزداد التمييز دقة، فيشهد قلبك أن شخصاً ينتصب أمامك فجأة هو من الدعاة، ولربما تكلم بكلمة واحدة أو لم يتكلم، وآخر يحفظ رسائل الإمام وتجزم بأنه غريب دخيل.

وطلب قاصد لإحدى المدن مرة عنوان عَين من أهلها يأنس به، فلم يعط، حَذَراً، فوصلها بسيارته مساء يتلفت، ووقف عند شاب ينتظر سيارة، يسأله عن مركز المدينة، فقال الشاب: أركبُ معك أدلك وأصل إلى بغيتى، فركب فقال: سبحان الذى سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين، فقال له القادم: يسلم عليك أبو فلان، فقال، وعليك السلام وعليه، فتفرسا، فالتقت الومضتان، فكانتا أقوى من ليزر. . . !

هو كذلك أمرنا: طابع لا يقلد، ونمط لا يُحَاكَى، وهو أشبه بظاهرة المروءة لما سأل عنها سائل، فقيل له: تؤخذ معاملة ولا تؤخذ نطقاً.

فمعنى «الدعاة» لا يوصف، ولا تفصح عنه الكتب، مع أن ألفاظ المعرّفين قاربت، وإنما حقيقتهم الدقيقة أنهم: (روح يسرى فى هذه الأمة) كما وصفهم الإمام، وللروح نبضات، أو: هم سمتٌ ونَفَس، وذوق ونَسَب، وتعرف هذه الروح من التجارب والمخالطة وقصص الأعيان أكثر مما تعرفها من المدونات والأسطر، ولذلك كانت كتب الأستاذ عباس السيسى أصدق كتب فى وصف الدعوة ومعناها، وأقربها إلى الدقة، وأعلاها عاطفة، لأنها تتحدث عن يوميات وأمور صغيرة من

(١) الفتح الربانى / ٤٥.

سيرة الدعاة تكشف عن الحقيقة الكبيرة والهوية الفذة المستقلة، وتجدها هيَ هيَ بمصر أو العراق، وبالخليج أو الجزائر، ولذلك فإن اندساس الغريب داخل الجماعة صعب غاية الصعوبة، وتشكل مسحة الدعاة الخاصة، وأسارير وجوههم، ونبرات أصواتهم: علامة مسجلة هي في الحقيقة أهم صمام أمني واحتياط وقائي، وصدقهم الفريد هو كلمة سرهم، وومضة عيونهم هي جواز مرورهم، حتى لو أن شابًّا آخاهم أول شبابه شهوراً، ثم غلبته شهوته فانغمس، فإن بقيةً من طُهرهم تبقى تحكم حركاته ولو بعد عشرين سنة من بُعده عنهم، رغم فجوره، ويكون الفاجر التقي، ولربما رده الحليب الحر، فيعقله الحياء عن إعلان العودة، فيبعث أولاده، يستعيد تاريخه بهم، ويتذكر الأنفاس.

الأرزاق الصافية... لقلوب عالية..

والله يجزي كلاً بنيته، وجزاء الإحسان ـ عنده ـ الإحسان، والرزق، والتيسير، وراحة البال، وسكينة النفس، وما بذل أحد بذلاً إلا عوضه الله تعالى في الدنيا قبل الآخرة، ولقد رأينا دعاةً نكلفهم، ونطلب منهم التفرغ للدعوة، أو القناعة بوظيفة دون أخرى أقرب لساحة العمل، أو يصبرون أنفسهم ـ هم من تلقاء أنفسهم ـ على ثغرة يرابطون عليها، فيعلم الله منهم التجرد، فيعوضهم خيراً مما لوكانوا استجابوا للحساب الدنيوي الظاهر.

منهم داعية نال الدكتوراه في الهندسة من جامعة أمريكية راقية، وأمامه منفذ لتدريس جامعي في الخليج براتب ضخم، فيُرشح للتفرغ لنشر الدعوة في منطقة محرومة من داعية، وبراتب مقداره دون رواتب الجامعات بكثير، فيفهم، فيلبي، فيعوضه الله بوظيفة في ساحة عمله لا تشغله غير يومين، وبضعف ما رضي به أولاً.

وآخر تُحجز له وظيفة في المنامة، وهو من حملة الماجستير، ويشجعه أصحاب له، وينتظرونه، **فنقول له**: المنامة تُنيم القلوب، وبيشاور توقظها. وهي تهبط بالهمم، وبيشاور تُعليها، فيزيد إلى خطوته خطوة أخرى فقط، فإذا هو بأجواء الجهاد يسرح، وبقرب المجاهدين يمرح، وراتبه النقي ليس أقل من الراتب المكدر.

ومتجردان على حدود خراسان، يبيعان الأمشاط على منضدة في مدخل سوق، ليس غير، فيكون رزق كل منهما ثلاثة أمثال راتب الموظف الجامعي هناك، فمِن الله نعمة، وممن خلفهم دعاء، ومن الرافعي تحليل لمثل حالهم، حين اكتشف:

(إن الأشياء الكثيرة لا تكثر فى النفس المطمئنة. وبذلك تعيش النفس هادئة مستريحة كأن ليس فى الدنيا إلا أشياؤها الميسرة. أما النفوس المضطربة بأطماعها وشهواتها فهى التى تبتلى بهموم الكثرة الخيالية. ومثلها فى الهم مثل طفيلى مغفل، يحزن لأنه لا يأكل فى بطنين) (١).

إن هذه القصص تنهض برهاناً وافياً على خطأ ما يعتقده البعض من أن أرضاً ما هى مكان المال والترف من دون أرض الله الواسعة، ولم يفطن هؤلاء إلى تبديل المعادلة، لهبوط أسعار النفط، أو البورصات، أو الاحتيال على البنوك، كما لم يعلموا خبر تعب من يسكن أرض الأموال، وأنها معسكر عمل ضخم فحسب يستهلك العواطف، ويمتص رطوبة القلوب حتى يتركها أليافاً ذابلة، حتى ليكاد المرء يذهل عن أصله، وينسى الحنين إلى فصله.

ثم هى برهان على وهم من يظن الغرب بديلاً، حيث جيرانك النصارى، وحيث لا تلتذ الأذن بأذان، ولا يتقن أولادك العربية، وتخاف عليهم الانحراف.

أما إن بعض الدعاة سكن الغرب أو أرض الأموال فتلك توزيعات القدر لا نمنعها، إنما نعيب الحرص على سكناهما والاستقتال فى ذلك وجعلهما منتهى الأمانى، فوق أن من سكنهما بين مرتبط بعلاقات إسلامية نافعة ليس من مصلحة الدعوة انفكاكه عنها، أو تشابكت حياته بقضايا قانونية واجتماعية ليس من السهل الانسلال منها، ثم هى مصدر تمويل خيرى، ومن التكلف المصطنع أن تفتعل نقل داعية مسترسل فى حياته ووظيفته ورزقه بحجة قسوة المحيط، ولكن نصيحة غير المتورط ـ بعدُ ـ أمرٌ آخرُ.

وما نظن نصيحتنا هذه بدعة، بل الوقاية من آثار المال النفسية هى سبيل قديم للمؤمنين، وسُنة من سننهم نحاول أن نحييها، وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ يقسم ويقول: (والله لقد أدركت أقواماً لو شاء أحدهم أن يأخذ هذا المال من حلّه أخذه، فيقال لهم: ألا تأتون نصيبكم من هذا المال فتأخذونه حلالاً ؟ فيقولون: لا، إنا نخشى أن يكون أخذه فساداً لقلوبنا)(٢).

وجعل ابن الجوزى ذلك رأس القواعد الإيمانية، فقال:

(١) وحى القلم ١ / ٣٣.
(٢) الزهد للإمام أحمد / ٣٧.

(القناعة بما يكفى، وترك التشوّف إلى الفضول أصل الأصول)

ثم قال: (والعز ألذ من كل لذة، والخروج عن ربقة المنن ولو بسفّ التراب أفضل)[١].

أساتذة الزهد الجديد

ومن المصطفين الذين رآهم الكيلانى يمشون إلى قدام: نفر من رهطنا نبلاء أمناء، يكاد الأمير يخلى مكانه لهم لولا الشروط، وبهم نفخر.

منهم داعية من بيت جاه ومال، ورباه الدلال، وكان يحصل كل شهر على ألف دينار من الحلال، ثم هاجر، وتشرد وافتقر، ووجد نفسه فجأة ولى أمر عدد من المهاجرين، يرعاهم ويقتسم معهم رغيفه ويشرب من بعدهم وَشَلَهم، فيقُلق حاله الفضلاء، فيشفعون له لدى رجال الأعمال، ثم يدعونه إلى رحيل حيث تنتظره وظيفة جيدة، فيأبى، ويختار المرابطة مع إخوانه، يربيهم، صابراً على الابتلاء، والنجيبة معه محتسبة.

فكذلك الإيثار يكون، وهو طريق الآخرة صفاء كله، وإنما يذوق حلاوته حُرٌّ مثل هذا جعل دنياه وراء ظهره.

وكان جعفر الخُلدى ـ رحمه الله ـ يقول: (سعى الأحرار فى الدنيا يكون لإخوانهم لا لأنفسهم).

ولله در شَهْمٍ آخر، يخرج من الموصل، فيقطع جبالاً ثلاثين، وقفاراً سبعة ونصف طريقه خطو على قدميه، حتى يستقر مع المجاهدين فى الميدان وراء كابل، ويتزوج فيهم، ويلقنهم مبادئ الدعوة وفكرها، ويرسل يطلب من إخوانه كتباً دعوية مع السلاح والذخيرة، ليتقن تربية من معه، وليكون الجهاد محروساً بوعى، وتبلغ مشاركته أن يغزو الروس داخل الحدود الحمراء ويقفل ظافراً.

إن هذين الأستاذين فى الزهد الشرعى يعلمان الدعاة أن الرهبانية المبتدعة إن كانت موتاً، فإن ما هم عليه من القناعة هى الحياة النابضة التى تعين على الحركة والجهاد والإنكار على أهل المنكر، وما كان إخلاد المسلمين إلى الأرض وذهاب عزهم وعز دولتهم إلا حين توقفوا عن ضرب مثل هذه الأمثلة الرفيعة فى العصامية

(١) صيد الخاطر / ٣٠٤.

والتجرد، **التى ميزها إقبال ـ رحمه الله ـ حين رأى أنْ:**

شتّان بين خلوة راهبٍ وشراع فقر فى عباب يمخُرُ

لما أضاع المسلمون على المدى ذا الفقر، لما ضاع هذا الجوهر

لم يبق فيهم من سليمان ولا سلمان دولة عزة لا تقهر[1]

فزهد الداعية هو شراعه الواسع المتين الذى يشق به بحار العمل والجهاد حقًّا، وترهق جامع المال حراسته، فهو عن درب الهجرة قصى، وعن نسمات كابل أقصى.

صور من تنافس النبلاء...

وكما يكون إبداع الشاعر معنى لم يُسبق إليه، أو اجتهاد الفقيه فتوى يتجاوز فيها التقليد: يكون نبل النبلاء أحياناً بدعة فى جيل متمرد على خصال الإحسان، لا يتجاوز عن حق، ولا يغض الطرف عن خطأ.

منهم شاب عراقى فى أزهى سنوات شبابه، يتمرد على الأعراف، ويتجرد فيتزوج أرملة شهيد من شهداء الجهاد السورى، وضم تحت جناحه أربع بنات لها، يربيهن ويُحيى مذهب المروءة.

ومتورط بزوجة فيها طبيعة ينكرها عرف الأحرار، وآخر تعجل واستحيى فورطوه بامرأة لا تناسبه، فيصبران، ويستران.

ورئيس جمعية فى مؤتمرها السنوى،يركض بين يدى الضيوف، يحمل متاعهم،ويوصلهم إلى غرفهم،ويسألهم عن طلباتهم، ويركض معه إخوان آخرون، حتى ينهكهم التعب، وينهكوا الشيطان بالتواضع، وتذكّر وقفتهم بقصص رجلٍ صالح: ينفق عشرات الملايين فى وجوه الخير، لكنه ما زال فى بيته القديم، وإذا أتاه ضيف نحّى الخدم، وحمل الصينية فيها الطعام على رأسه، إكراماً للضيف.

وداعية جُهل عليه، فكان أعقل، وكظم وصفح.

فهؤلاء مظهر قدر الله تعالى فى استمرار سند المكارم، ووقفاتهم برهان على نزعة الأصالة.

---

(١) ديوان ضرب الكليم / ٣٤.

لكن بالمقابل.... نفر يجزعون.. !

ولو اطردت هذه المناقب لجميع السالكين لوصلوا منذ وقت بعيد، ولكن شاء الله وحكم أن يكون مع الراكض قصير الخطو، ومع حديد النظر من يفرك عينه.

منهم قوم يجزعون، وليس يليق للدعاة أن تستولى عليهم الحساسية التى تتركهم فى تبرم لو فحصت سببه لما ألفيت ثمّ غير صغائر.

فالجزع عند المعاتبة ـ مثلاً ـ ينحت نحتاً ضارًّا بقابلية استدراك الخطأ ومعالجة العيب، وكل داعية لابد خطّاء، ولا مفر من طبيعته الإنسانية، وليس يصح لأحد أن يألم لكلمتين خفيفتين تقالان له، بل حتى ولا لثقيلتين.

والحياة المعاشية اليوم يسودها تنافس شديد، وكل مدير دائرة أو متمكن نزّاع إلى بنى جلدته ومعارفه يقدمهم ويدخر الفرص لهم، وخير لكل عين يتخرج أو يهاجر أن يطيل صبره وأن يدع التأفف، فإن الأرزاق مكتوبة، والوسطاء من إخوانه يأخذون بالأسباب ما استطاعوا، وليحسن بهم الظن، فإن لم ينل الوظيفة وزهدت الجامعات فى طاقات فكره فليس أجمل من أن يتواضع، وينزل إلى ميدان المهن وأعمال الخدمات المدنية ويأكل من عمل يده، وليتحمل الشمس والبرد، وله أن يفخر بقطرات عرق ترى على جبينه، أو رعشة فى يده من إرهاق، فإن العمل شرف، ومن التعسف أن يشترط لوظيفته أو مهنته أن تجلسه خلف مكتب وتحت مكيف هواء، وسيأتى الوقت الذى يدلف فيه إلى وظيفة مريحة أو تجارة رابحة.

وهجرة من هاجر إنما هى لله تعالى، ولذلك لا يعيب المهاجر أن يفهم وضعه كما هو، وأن يتكيف لحقائق الحياة الصعبة فى دار الهجرة، ويعرف أنه محروم من كثير مما يتمتع به الناس، بل مما يتمتع به بعض أصحابه المهاجرين، وبخاصة فى كماليات الحياة وزينتها، وليس له أن يرهق إخوانه بطلب جواز سفر مثلاً للحج أو العمرة أو الاصطياف إذا كان آمناً فى سربه ولا تثير السلطات فى محل إقامته قضية الجواز، وليتذكر خروجه يوم هجرته خائفاً يترقب وليس بينه وبين الموت غير إصبع إذ الملأ يأتمرون به ليقتلوه، فأمنه الله ونجاه وتربّع فى أرض المرابع.

وأيما رجل منا شارك إخواناً له فى تجارة فليعلم أنها تجارة كاسمها، فيها احتمال الخسارة وضياع المال، والتوفيق من الله تعالى، وليس كون ماله (تحويشة العمر)

بمعط له ميزة فى رفع الصوت على أخيه تولى الصفقة فعوكس، ولا له حق التذمر الصاخب، وفى الشكوى الهادئة شيء من البأس كذلك وإن كانت أخف غلطاً.

ونكره لداعية وجد فى امرأته نقصاً أن يجزع، فإن صويحبات أصحابه ربما هن كذلك أيضاً ولسن بصحابيات، وأقرب للمروءة أن يصبر، بلا إذاعة للشكوى، وليعمل عملاً صالحاً يدخله الجنة، فهنالك الحور العين يتخير منهـــن ما يشاء.

حتى فى الأمر التعاونى نجد للجزع روّادا، فمنهم من يستسلم للهموم المعاشية أو العائلية ويترك العمل والمشاركة فى وجوه النشاط ومن يُضرب عن حضور اجتماع أجله المدير أكثر من مرة، احتجاجاً على التأجيل، ولا يدرك الضرورات أو المصالح التى تنهض عذراً، وآخر له نفس صافية، يتولى قطاعاً أو منطقة أو لجنة وتحت إمرته فضولى ملحاح، فيقبل تدخلاته، وينزل عند إلحاحه، ضجراً فحسب، ولا يكون حازما. أو آخر مثله، لكنه لا يصبر على أذى إخوانه له أو يكظم، بل يكيل لهم الصاع بصاعين، وتكون الدقة بدقتين، لا يعرف التربية بطول الأناة واستيعاب الجافى.

إن مثل هذه الأحوال، ومثل ذلك الانهيار أمام شدائد المعيشة، هى شواهد على أن حاجيات الناس فى الحياة:

(لا تتعقد بطبيعتها، ولكن بطبائعهم فيها، ولا تستـمر بقوتها، ولكن بإمداد قواهم لها، ولا تغلب بصولتها، ولكن بجزعهم منها، ولا تعضل من ذات أنفسها، ولكن من سوء أثرهم عليها، وسوء نظرهم لأنفسهم ولها)[١].

وهؤلاء إخواننا يأخذون حرفية المجاز الذى فى قول عمر رضي الله عنه وترتيب المسئولية على نفسه لو عثرت بغلة بأرض العراق، وينزلون ذلك تنزيل الحقيقة، ويحسبون أن كل من تعثر بغلته اليوم بأرض بيشاور، أو جبال الأناضول، أو أرصفة شيكاغو، فإن الإمارة مسئولة عنها مسئولية تكليف قانونى تام بحق جازم، وليست هى مسئولية أخلاقية بحدود التكافل الأخوى الذى يحرص عليه الأمير ما استطاع ويحاسَب عليه بالحسنى.

إن مصارحتنا هذه إنما هى محاولات لفهم أسرار النفس الإنسانية، ومن باب طلب إتقان التعامل معها، ونبرأ من تعيير لأحد أو قصد سوء أو تشهير، والمحرك لنا

(١) وحى القلم٢ / ٥٧.

هو طلب الكمال والمراتب السامية، ونحن ندرك أن أضعف داعية هو أرقى أضعافاً مضاعفة فى أخلاقه من أقوى السائبين.

ولأسواق المرجوحات زبائنها..!

ومن الدعاة قوم يختارون الخطأ اختياراً، ولا يجفلون منه إذا دهمهم، ولا ينفضون أذيال أثوابهم ليبرءوا من العوالق.

فلا يليق لداعية لم يجرب التجارة من قبل بخالص ماله أن يغرى الآخرين بالصفق بأموالهم، فإنها تحتاج الخبرة واليقظة، وإذا كتب الله الخسارة فسيكون أول ضحية وتخسره الدعوة وإن بقى شبحه معها بما يكون من التلاوم وتكدر النفس وأفكار الوساوس.

وأعقد عقد الحياة الزواج؛ لما فيه من رابطة دائمة تجعل الصبر عند عدم الرضا مشحوناً بمضض، أو ما فيه من احتمال الطلاق وسوء السمعة التى تعقبه واللغط والتجنى على أحد الطرفين. ولذلك يجب على كل منا أن لا يستسهل أمر التزويج والتوسط فيه، ولا المبالغة فى الحماسة للجمع بين اثنين، وإنما يكون هذا الأمر وفق دراسة متأنية وتشاور سرى بلا ضجيج، فيحرص على التكافؤ العائلى والثقافى والبيئى، ويسأل عن الطباع والعادات، وليست الصلاة وحدها والعفاف والحجاب دلائل الصلاح والتوافق، ولرُبّ بخيل يقلب حياة كريمة إلى جحيم، أو فوضوى ربيب بيئة عامية يحيل أيامَ معتادة على ذوقيات رفيعة إلى حرج متواصل، أو لجُوج تستفزه الصغائر ينكد على حرّة ساعاتها، وما ثمّ إلا مومن.

* ومتحمس لخدمة إخوانه، يزكيهم مهنيًّا لدى التجار وأصحاب الأعمال من المصلين، ويرشحهم لأعمال تقتضى الإتقان والإجادة، وهو أول من يعلم ضعف خبرتهم واحتمال تضييعهم لمصالح من سيأتمنهم على مصنعه أو مقاولاته.

* وآخر يتزوج من غير تشاور مع إخوانه،وربما يُبعد فى الاختيار ويلجأ إلى غير بنات بلده، فيتعبه اختلاف الأعراف، وحرص الغريبة، وبُعد الأخوال، وضعف الانسجام مع زوجات إخوانه.

* ومن له تفريط فى أمر أولاده، فلا يربيهم على النظافة والهدوء وخفض الصوت واحترام الكبير والحياء من الضيف، ولا يعلمهم السلام على إخوانه وجواب

التحية، ولا تستفزه الألفاظ المعيبة التى ترد على لسانهم تقليداً لابن جار أو زميل مدرسة، حتى لكأنهم أولاد رجل عامى وليسوا أولاد مؤمن، وربما تطيش أياديهم فى صحون المائدة إذ هم ضيوف ولا ينهاهم، أو يخربون الأثاث فيبتسم **ويقول**: هو حرك ما شاء الله، ولو أراد التأديب لوفق له، ولكن تليّفت عنده بؤرة الذوقيات، أو عند زوجته التى وكلها إذ هو فى مصالح الإسلام والمسلمين منشغل.

* وعلى عكسه صاحب جد لا يعرف طريق الموازنة، فيخرج إلى إفراط، ويشدد على أولاده الصغار فى العبادات والاستيقاظ للفجر وقراءة القرآن، وربما جعل الضرب عادة، ويُلزم بناته بالحجاب وما زلن صغيرات، فيؤسس كراهية الصلاة والحجاب لدى ذريته، ويكون التمرد عند المراهقة، ويحسب أنه قد أحسن صنعاً.

* والله ستّار يحب الستر، ويحب من عباده أن إذا اطلع أحد منهم على سر أخيه وعيبه وهفوته أن يستره ويغطيه، ويتأكد هذا الخُلُق بين الدعاة، لأنهم هم الذين يلقنون المروءة للناس، وإلى دارهم أرزت بقية النبل الذى يتوالى انقراضه فى المجتمع، وليعلم الداعية أن الشيطان قد أوهم أخاه فزل، ليس يتعمد، وتقوم سوابقه الفاضلة شوافع له، فليُشفّعها، إذ ليس شوقه لنشر خبر العثرات والتلذذ بالإيماء لها فى حديثه أقل شذوذاً منها عن خلق الكرام، ولو أن هاتك الأسرار حين ينثرها من جعبته أمامنا يقابَل منا بصدود وإعراض عنه لثاب وتاب، ولكن أُذن السامع تغرى لسان الفاضح أحياناً.

* وكل امرىء فقيه نفسه، والمفروض أن لا يأذن لطموحه فى أن يلغى معرفته بحقيقة ظروفه الصعبة، ولكن بعض الدعاة يأذنون، فيتورطون بدراسة عُليا ما هم لها أهل استعداد وإن كانوا أذكياء، ويورطون معهم عيالهم، ويتأخرون عن الأعمال الإسلامية الكبيرة دهراً بسبب ذلك، ولو أرادوا معرفة الإيجاب والسلب فى خطواتهم لانْبَغَى لهم ذلك قبل الخطو، لكن الفرصة دهمتهم فأنستهم الحساب، وهيهات الجبر، إذ تشعر النفس عند وجوب التراجع بمعنى الهزيمة، فتكون المغالبة، والمعاندة، وتكون الدائرة المفرغة، وتضيع ساعات عمر شبوبيته وطاقات عنفوان عقله بين حنى الظهر على المراجع وانتظار أستاذه المشرف.

* ونعم العون للداعية التجارة، والرزق عين تتفجر تحت أقدام رجال الإسلام، وهى وصية الإمام فينا؛ أن نسعى للأعمال الحرة دون التقيد بسلبيات الوظائف

الحكومية، ما لم تكن وظيفة لها أثر تربوى أو سياسى أو إصلاحى، وقد وعى الإمام ذلك فى وقت مبكر ـ رحمه الله ـ ولكن الداعية مدعو إلى الرفق فى الإيغال فى هذا الدرب، وأن لا ينسى نفسه فيغرق ويتلف أوقاته بين مكتبه والتليفون والتلكس وإعلانات الصحف والسوق والبنوك والمعارض

التجارية إلى الدرجة التى تضعف مشاركاته الإسلامية واجتماعاته ومطالعاته وعلاقاته الاجتماعية، فإن أصل توجهه أن يتخذ من المال وسيلة، ولطالما ذكر لأصحابه أنه قد نوى هبة بعض أرباحه للدعوة، لكنه يغفل فيلهيه التكاثر، ولو أنه أنصف نفسه لاتعظ بقصص مَن غفل قبله من جيرانه فى السوق قبل أن يتعظ بحروف الزهاد، لكنه يفتأ ـ رحمه الله ـ يزداد، وماذا عليه لو جعل له وكيلاً يذهب ويرتاد، ولا يكلفه شيئًا غير راتب يسير أو نسبة أو سرقة قليلة فى أقصى الأحوال يمكن له أن يتحملها وغض النظر عنها طالما أن هذا الوكيل يجمع له بين دينه ودنياه!! وعلى الوكيل وزر السرقة وله أصل رأس المال، ومعظم الربح والنشاط الإسلامى الفعّال، خوالص صوافى كالزلال !!

* ووصّى النبى ﷺ نفراً من أصحابه أن إذا سقط سوط أحدهم وهو على فرسه أن ينزل ليلتقطه ولا يكلف راجلاً بالتقاطه له، وهى عزيمة لا نبلغها ولا نكلف أنفسنا أو أحداً بمثلها، ولكن ترخُّصنا لا ينبغى له أن يتوسع حتى نستعمل حقوق الأخوة فى غير محلها، فنثقل على إخوان لنا من أهل الحمية والنجدة وحب خدمة الكبار والأقران فنجعلهم ضحية مروءتهم وتتلف أوقاتهم بين التسوق لإخوانهم والإشراف على بنيانهم وإنجاز المعاملات الحكومية لهم، فإن الإنصاف خير، ولأهلهم حقوق، ولأنفسهم مصالح، وللدعوة تكاليف، ومن العدل أن نعطيهم فرصة تنفس، ولعضلاتهم ساعة راحة.

* وطريقة فيها بأس أن يتم استنفار عدد من الوسطاء للسعى فى الشفاعة فى قضية ما حرصاً على زخم التأثير من دون أن يقال لكل منهم أن غيره قد كلف بذلك أيضاً، ويأبى الذوق السليم ذلك، وقد يتوافد الوسطاء على صاحب القرار فى ساعة واحدة فيتكلمون بكلام واحد من دون أن يشعروا، فيتولد إحباط وإرباك، وليس للمهوف أن يحرج أصحابه وأشراف الناس فى سبيل مصلحته.

* وهُمام يتصل برجال رؤساء وأعيان، من وزراء ومدراء وتجار، ثم يرى من

خلال صحبتهم استفادة الناس منهم ومن كرمهم، فيغفل لحظة عن معانى العزيمة، فيطلب مثل الذى يطلب الناس، فيصغر فى أعينهم بعد إذ كان كبيراً. وتنهار صلته وإن بقى شبحها ورسمها.

* وقضايا الإسلام أوفر جدًّا وأثقل هموماً من أن تدع عصبة من الدعاة تطيل الضحك، وتستجيز المزاح وتتخذ لها من صاحب خير فيها محور تندّر وتروى قصصه وغرائبه، والابتسامة علامة المؤمن ولسنا ننكرها، والنكتة فى ساعتها سائغة، والأريحية أصل فى سلوكنا، والألفة، والبشاشة، ليس العبوس، والقهقهة الأولى لك، والثانية نهبها لك أيضاً، فإنا كرماء، ولكن الثالثة عليك، وتشفع حسناتك لها عندنا، وأما الرابعة فيلزمها حدّ لا شفاعة فيه، وشعار: الضحك للضحك: باطل، والهزل الهزيل مرفوض فى أوساط العمل الإسلامى، وإنما الداعية مفوض بالجد والتجديد.

* ووقّاف عند صغائر إخوانه، يدقق فيها، ويحصى ويعاتب ويستشهد، حتى يضجر المعامل له، وكأنه شرطى، إذ الأمر أهون ويجرى مجرى المروءة والتجاوز ومراعاة الحقائق البشرية واطراح المقاييس الملائكية.

* وشجاع على النقيض من هذا، أستاذ فى المروءة، وقد ذابت نفسه فى معانى الأخوة، ويكاد يتلف بدنه فى خدمة إخوانه، حتى ليركب المخاطر فى ذلك، ويرحل بعيداً لتحقيق مصالحهم، وله لذة مع كل خطوة فى سبيل الله، لكنه فوضوى فى ذلك لا ينضبط، ولا ينصت لإشارة أمير أو خبير، ولا يعرف الأولويات، ولا مقادير استحقاق أهل الحاجات، ولا الكتمان، ولا الآثار التربوية لطريقة سعيه، وقد يفسد أخاه بتعويده الاتكالية إذ هو يريد له الإحسان.

حين تكون النظرية الجماعية مشجباً لتعليق الأهواء

* **وشعار الدعوة**: أن الطاعة بالمعروف، وأنها باب من العبادة وطلب الأجر، وما هى بتبعية ولا إلغاء لأدوار أهل الفضل من الدعاة، ولذلك فإنه ليس من الأخلاق الدعوية ولا من منهجية التربية القيادية أن نبالغ فى الطاعة إلى الحد الذى نعطل فيه تفكيرنا ثقة بتفكير الرائد، ونشيد بوعيه الفريد وعلمه المزيد، حتى لكأنه المعصوم ووارث الخاتم السحرى، **أو نقول**: لو لم يكن قوله صواباً لما قاله، أو نقول: من المستبعد أن يفوته رأى. بل من فقة الدعوة أن نحاور بالحسنى، وأن نعتقد

عجزه عن العصمة، وأن نعرض ما عندنا من رأى بأدب، ثم تكون بعد ذلك طاعتنا الواعية المعتمدة على القرار الشورى .

وهذا القدر من الفهم الدعوى الصحيح لحدود الطاعة ومعنى الإمارة أصبح من العلم الشائع الذى لا يجهله الدعاة، ولكن تجاهله يكون حين يستقر فى القلب شىء يحمل صاحبه على التماس تمرير معنى من المعانى وإنفاذه، فيتوسل لذلك بوسيلة المبالغة هذه، يظن أنها ثمن واجب لتوفير غطاء لإشاعة ما يذهب إليه، وهيهات، إذ كان مقلداً فى الوقت الذى يريد له قائده الاجتهاد، والأمير التقى يحزن إذا رأى سيطرة البداوة الإمعية العاتية اللاغية لآثار المناهج التربوية، ويبرأ من ذلك، وكل أمير يفهم أن المقلد أعجز من أن يشارك فى استئناف النهضة الحضارية الإسلامية، وأن أقدار المقلدين المفوضين لن تعدو تأسيس مشيخة صحراوية، وفى أحسن نتائج التأول لهم أنهم فى مثل حالة هيام الصوفية بشيخهم حين ينسبون له الكرامات.

* **ومن البدائل فى إنفاذ المعانى**: أن يقوم صاحبها باستنطاق أقرانه وأخذ رأيهم فيها، لإضفاء صفة شبه جماعية عليها إذا وافقوه، فإن وجد سكوتاً أو مغايرة: كان منه إلحاح ربما يضجر منه المقابل فيوافقه للتخلص من حصار الإلحاح، وما ثمّ غيره الإكراه أو شبهه، فإذا كان نطقهم: نَسَبَ الرأى لهم وعزاه، والسوى يربأ بنفسه عن هذا الاختباء، ويبارز وجاها، فإنها أخلاق الفروسية وطباع الفرسان حين يثبتون فى مواقعهم فى قلب المعارك، ولكن قد ترى فى أقاصى ساحتها من يُحْمل على حمار أعرج، ربما، ولكل مسلم حظه ورزقه من الفكر والعقل والمنطق والوضوح، أو ترى آخر يعرف الحقيقة الفيزياوية فى وجود فراغ خلف المندفع المسرع تتضاءل فيه مقاومة الهواء، فيرتضى لنفسه أن يحتل ذاك الفراغ ، لضعف طاقته، وليعينه التيار المنتقل إلى فراغ الاندفاع، فيظل راضياً بالمنزلة الخلفية، والوجهات التبعية.

* وداعية صالح من الذاكرين، رقّت نفسه وصفت حتى ملأته عاطفة، ونقلته إلى حالة من الرحمة والشفقة على جميع إخوانه، بحيث أصبح لا يستسيغ أن نعظ المخطئ بلسان صارم، ولا يرى جواز توجيه عقوبة لمسيىء، ويفهم حل كل الأمور على مبدأ: تصافحا تعانقا. غير ناظر إلى عواقب الفتن، وضرورة الحزم، وقبح خلع الطاعة، وعدم تساوى منزلتى الكفّين، ولو جرت الأمور على قياسه لكنا فى زفة عرس لا موكب دعوة تريد أن تهدم الطواغيت.

* وعلى عكسه صالح آخر، إدارى فى تعامله مع إخوانه، وليس فى قاموسه لفظ العاطفة، يابس ناشف، يدير قطاعه بأعراف الشركات، فهو ثابت عند قناعاته لا يتزحزح، مطرق لا يبتسم، حَرفى لا يتأول، نصّى لا يجتهد، لا يقبل عذراً، ولا استثناءً، ولا وصفاً مقارباً، أو حلاًّ بديلاً، وإنما ديدنه الجداول والاصطلاحات والإلزامات والنسبة المئوية، بل الألفية.

* وآخر لا يعجبه العجب، ولا يرضى عن صحبه، إذ هم فى هجرة أو وضع صعب، وفى تقسيم نعرف نقصانه عن الحدود النموذجية بتأثير الضرورات، وصاحبنا يقيس بموازين أيام العافية والاستقرار، ويشتهى على رسله، ويتمنى مربياً رفيع الصفات، وأصحاباً أشكالاً، وهيهات، ولو قنع بالقسمة وعاون لكان خيراً له وأبرد لقلبه، ولو وَزَرَ لمربيه لتكاملَ الأمر واستقر.

أنماط دون مستوى الاستنباط

ومن إخواننا أصحاب أنماط نفسية فيها غرابة، بعضهم يحوم حول أهداف صغيرة مفضولة، لهم ببلوغها شبع، وبعضهم يعجز عن استخراج فوائد قريبة منه، وبعضهم يسلك مضائق جانبية تؤخره إذ القافلة مسرعة فى طريقها الواسع المستقيم.

* منهم المتردد، الذى لا يعزم عزمة واحدة على فعل شيء، ويتأخر فى اتخاذ قرار فى شأنه الحياتى المعاشى المحض، فيتلف أوقاته بكثرة التفكير،ويبدد أوقات إخوانه بتكرار الاستشارة،فلا هو بالمقتحم الفاعل، ولا هو بالتارك الناسى، وله مع كل مجالسة لإخوانه بحث لما هو مقبل عليه، كأنه يريد منهم أن يتحملوا مسئولية قراره.

* وداعية يعلن حرصه على نيل العلم وأن تروى له التجارب، ونرى فى ذكائه قرينة على صدقه،فنمكّنه، فيلبث طول المدة صامتاً، يسمع الدرس ولا يتكلم، ونود أن نعرف مدى استيعابه فلا نستطيع، ونحب أن نعلم رأيه فيما يقال إن كان مؤيداً أو معارضاً فنعجز، ونحاول تحريكه بسؤال نطرحه عليه، فيجيب بحروف قليلة.

* ومع ذلك فهو أحسن من آخر يبالغ فى كل كلامه، فيتحدث عن وجود ظاهرة يدّعى أنها أقرب أن تكون من علامات الساعة، فتفحص الأمر فتجدها حادثة فردية، ويؤذن فى الساحات أنه هو النذير العريان، فتفزع، ثم تكتشف أن ليس ثمّ غير وَهْم بلا برهان، ووسوسة أشبه بالعدوان.

* وآخر يكثر النقد، ولا يكاد يرضيه شيء، وينظر إلى الركب السائر نظرة تضعيف، لما يرى من نقصان الأصحاب عن بلوغ أوصاف النموذج العالى، وكأنه لا يدرك مغازى لغة الرمز والمجاز والوعظ والحث، وينزل حروفها منزلة متون القانون وحرفية الدلالة.

* وقريب منه: الكثير التشكّى، المتأفف، الضجر، الذى يدّعى مع كل شمس تطلع على العباد تبشرهم برزق واستئناف عمل أنه غير محظوظ ولا موفق، وأن الرياح عكست شراعه، وأنه ممتحن بمحن، ومريض بأمراض، وقد يكون ذلك صحيحاً، إما لذنوب يرتكبها هو أعرف بها، تليق لها التوبة، ليتوسع رزقه وأمره، أو لتمحيص يليق له الصبر لا التوجع.

* وآخر أعطل، لا تهمه الموعظة التى فى مثل هذه المصارحات، بقدر ما يهمه أن يعرف من هو المقصود بكل ملاحظة، ولربما استدرج إخواناً له إلى شبه مؤتمر ليعينوه فى التعرف على الهمَّاس والحسَّاس والمتردد والصامت، وهذا انحراف بمقصد الرسائل، واهتمام هابط.

الفكر والأخلاق.... والذوق الحسن

وكل هذه الملاحظات إنما وردت فى محاولة التوصل إلى الصياغة النفسية السوية للداعية، أو لضبط السلوك الإدارى والتربوى، وهى أمور تضاف إلى ما يوجبه الشرع من التزام أحكام الحلال والحرام، وإلى ما تفرضه الأخلاق الإيمانية الأساسية.

ولكن قصة صياغة الشخصية الدعوية لا تنتهى عند مثل هذه الحدود، وإنما تلزمها أيضاً آداب يمليها الذوق الرفيع الحسن لابد منها لتجميل مشاركة الداعية فى حياة الناس اليومية وللارتفاع بمستوى تعامله الاجتماعى، ولابد أن يتميز بأفعاله وعاداته وكلامه وحركاته ومخالطاته عن أعراف العامة وما يعكرها من خشونة وسماجة وعنف وهدر لمقاييس الجمال.

وهذه الحاسة الذوقية ميراث نرثه عن النبى ﷺ، وعن أئمة الدين رحمهم الله.

(فقبيح بالعاقل إهمال نفسه، وقد نبه الشرع على الكل بالبعض، فأمر بقص الأظافر... ونهى عن أكل الثوم والبصل النيء لأجل الرائحة. وينبغى له أن يقيس

على ذلك ويطلب غاية النظافة ونهاية الزينة، وقد كان النبى ﷺ يُعرف مجيئه بريح الطيب، فكان الغاية فى النظافة والنزاهة) [١]

وقال الشافعى لابنه وهو يعظه:

(يا بنى: والله لو علمت أنّ الماء البارد يثلم من مروءتى ما شربت إلا حارًّا)[٢] .

وتجب على الداعية المسلم فى هذا السياق سلسلة طويلة من الذوقيات ينبغى أن يضعها فى حسابه، وأن يكون بالغ الحساسية إذ هو يتصرف ويخالط ويشافه ويأكل ويشرب ويزور ويستعمل الآلات، فيحرص على أن يظهر بمظهر الرقة والنظام والنظافة والحفاظ على حقوق الآخرين.

* ففى نظافة البدن والملبس: نحب للداعية أن يكون كثير الاغتسال، وخاصة أيام الحر حيث يعرق البدن، بحيث لا نشم منه رائحة العرق ولا من قميصه ولا من جوربه حين ينزع حذاءه فى المساجد والمجالس.

وأن ينظف أسنانه بالسواك أو الفرشاة أو بهما معاً عدة مرات فى اليوم، وخاصة عند التوجه إلى المسجد أو النوم، وأن يقص شعره عند الحلاق ولا يتركه ليكون جُمّة، وأن يُحجّر أسفل كعب قدمه كل أسبوع.

* وفى مجالسة الآخرين والحضور الاجتماعى: نكره للداعية أن يقص أظافره فى مجلس، أو يضع رجلاً على رجل أمام من هو أكبر منه سنًّا أو مقامًا، إلا أن يكون بين أقران. وهذه العادة ما زالت تعتبر عند الأتراك أشبه بالكبائر، ولو فعلها داعية لترك مجلسه الناس، وأنكر من ذلك أن يرفع قدمه ويضعها على ركبته الأخرى بحيث تكون أفقية ويتوجه أسفل كعب حذائه إلى وجه أحد الجلساء

وفرقعة الأصابع أو عظام الرقبة فى المساجد والمجالس قبيحة، وكذا كثرة التنخم والنحنحة، أو التمخط بصوت عال، ولو استطاع أن يقوم ليتمخط فى بيت الخلاء أو الحمام لكان أجمل، وليكن المنديل معه دائماً، ومناديل الورق، وليكتم التجشؤ قدر استطاعته، فإن تساهله فيه إنما هو من العيب الشديد.

* وفى آداب الضيافة والأكل وإعداد الطعام: نكره للداعية أن يفرش قطعة من المشمع أو النايلون ليضع عليها الطعام والخبز ثم يدوسها بقدمه، فإن باطن القدم لا

(١) صيد الخاطر / ١٥٩.
(٢) طبقات الشافعية ٢ / ٧٢.

يخلو من جراثيم، وقد يلامس الطعام موطن القدم. ونكره أن يصنع لضيفه طعاماً بالثوم، خاصة إذا كان الضيف زائراً من بلدة أخرى، فإن الآخرين سيعانقونه ربما عند التحية، فيكون فى حرج، ومن الخطأ الظن بأن أكل شىء بعد الثوم يذهب برائحته، لأن الرائحة لا تنبعث من المعدة بل من خلال تصفية الدم فى الرئة أثناء التنفس، وتظل تسع ساعات بعد الأكل.

ونكره أن يقدم للضيف لحماً غريباً ولا يخبره، كالأرانب، أو يقصر مائدته على نوع واحد فقط غير مألوف فى ديار الضيف.

وليحذر الداعية أن يشفط الحساء أو غيره بصوت عال، فإنه عيب، أو أن يصدر صوتاً من شفتيه بعد بلع اللقمة، أو أن يبالغ فى مصّ أصابعه.

ونكره للداعية زيادة إكرام الضيف بتنويع الطعام، حتى يتعب زوجه فى خدمة الضيوف، ويصطادهم ويلح عليهم بأدنى مناسبة، والمسكينة هى الضحية، وقد تكون مرضعاً، والتكلف للضيف قد يجعله محرجاً ولا يكرر الزيارة ويلح فى الاعتزار إذا دعى مرة أخرى، ولو جرت الأمور على البساطة لكانت خيراً. ومن التكلف أيضاً: جعل العشاء المتخلل للاجتماعات عشاء تامًّا، فإنه يرهق ويتلف الوقت، والاكتفاء بالطعام الخفيف أولى وأبرك.

وإذا كان الداعية ضيفاً فليأكل أكله الاعتيادى الذى يأكله فى بيته أو أكثر، لتطيب نفس من دعاه، ومن العيب أن يأكل بضع لقيمات فقط، حياء أو لسبب آخر، فإن ذلك يؤذى الكريم، ويؤذى نساء البيت اللواتى أعددن الطعام، وسرورهن يكون بمقدار أكل الضيف.

* وفى الزيارة: نكره للداعية صاحب الأولاد الكثيرين زيارة بيوت إخوانه والبيات بعائلته عندهم الليالى ذوات العدد، إلا لضرورة، وقد تتحول المودة التى قصد تأسيسها إلى خصام بين النساء تبعاً لخصام الأولاد. ونكره للداعية أن يأتى إلى لقاء ومعه امرأته وأولاده، فيكون لبثهم فى بيت أخيه إلى منتصف الليل، وإنما الزيارة ساعة. ولا يَزُر وقت القيلولة والراحة، ولا أول الصباح وعند منتصف الليل، وليستأذن بالهاتف ما استطاع ما لم تمنع الظروف من ذلك..

وليكن طرق الباب برفق، ولمسة الجرس قصيرة، ليست متصلة مجفلة. ويكون

الوقوف بعد الطرق جانباً لا أمام الباب، إذ ربما فتحته امرأة، أو وقع النظر إلى الداخل.

ومن الظلم أن يستهين زائر بأوقات الناس فيتأخر كثيراً عن الموعد ولا يأبه، وأظلم منه من يتشبه بالغربيين فيحاسب على تأخر دقائق قليلة.

وبيوت الدعاة مساجد، ولذلك نكره أن يدخل الزائر بحذائه إلى الغرف، بل يخلعه عند الباب، وليعلّم امرأته وأولاده ذلك أيضاً.

* وفي السلام والتحية: نكره أن يصافح بيد مرتخية، ولا يد ضاغطة حديدية. والسلام الجاف بكلمة واحدة بدعة وجفاء، وأشد ابتداعاً منه تكرار السلام حتى يضجر المقابل. ونكره القُبلة بين الرجال، مع أنها عرف قوي، ونتمنى أن يسود عُرف بديل عنها فيه مجرد التعانق أو الاكتفاء بوضع اليد اليسرى على كتف المقابل كما يفعل أهل السودان.

ونكره أن يقبّل الداعية يد أميره أو العالِم، إلا أن يكونا من كبار السن وليس في رأسهما شعرة سوداء.

* وفي الخِطبة والتزويج: نكره أن يأخذ الداعية بظاهر حديث: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه)، فيزوج بنته أو أخته ممن لا يناسبها ثقافة أو ذوقاً وطباعاً أو سنًّا، والحياة المدنية الحاضرة معقدة، وتأثيراتها نافذة، ولابد من مراعاة الانسجام وعوامل المكافأة، إلا أن تكون أرملة أو مطلقة يصعب تزويجها.

ومن المروءة أن يُخبر أحدنا بعيب بنته أو أخته أو ابنه، ثم يكون المقابل بالخيار، وكذلك العيب الذي في العائلة مما يمكن أن يورث، كالجنون أو أمراض الدم المستعصية.

ومن الظلم أن يسرع الخاطب إلى إعلان خطبته لفلانة قبل أن يراها، ثم يراها ولا تعجبه فينسحب، ولتكن التمهيدات سرية.

وليس من المروءة أن يستشير الخاطب، فيخبرونه بشيء من طباع المخطوبة أو أهلها، فيمتنع ويشير أن فلاناً قد نهاه، فتثور ثائرة الأهل، وأنكر من ذلك أن يجعل ما اؤتمن عليه من سر العائلة أو حال البنت خبراً مشاعاً يبثه، ويقول: رفضت لكذا، ووجدتها قبيحة، وأمثال ذلك.

ومن العدل أن من فشل زواجه وطلق وأراد ثانية: أن يخبرها وأهلها بما سلف منه، فإنه أبرك وأبعد عن التلاوم..

ونكره للداعية أن يكون حجاب أهل بيته على نمط غريب، كأنه التاج فوق الرأس بما فيه من تطريز وتفنن، فإنه يثير الفضول ويجلب النظر ويؤدى إلى عكس مقصد الحجاب.

وليس من المروءة أن يكثر الداعية تهديد زوجه بالزواج من أخرى، ولا المزاح معها بحديث مثل هذا، فإنه ثقيل عندها، وإذا كرهها فليصبر أو يطلق، ولا يشعرها بأنه يكرهها، وليجتنب الألفاظ العامية القاسية فى الرد عليها.

وليس من المروءة أن يستسهل الداعية إغاظة زوجه لأسباب تافهة وهى صاحبته وخادمة ضيوفه دهراً، ونحب له أن يحترمها ويحسن إليها ويقول لها حسناً..

ونكره أن يُغرب الداعية فى أسماء أولاده بحيث تكون ثقيلة المعنى والجرس، لا لشىء إلا ليكون الاسم لا ثانى له.

* وفى استعمال السيارة: نلتزم نحن دعاة الإسلام بقواعد المرور، فإنها من الطاعة الشرعية لأولى الأمر ولو لم يحكموا بالإسلام، ونحب أن تكون سيارة الداعية نظيفة مثل داره وثوبه.

ولا يليق أن تقف أمام بيت صاحبك وتنادى عليه بمزمار السيارة فى وقت ظهيرة أو نصف ليل، لئلا تزعج جيرانه، وإنما ذلك فعل الشباب الطائش.

وإذا سقت سيارتك فى طريق ترابى وقاربت أحداً يمشى فاخفض السرعة إلى أدنى ما تستطيع، لئلا تؤذيه بالغبار، ولربما يكون قد لبس قميصه لتوه، وهذا من أبشع الظلم واللامبالية التى يقلد فيها بعض الدعاة عامة الناس.

وإذا سبقك سائق بجهل منه وأخذ دورك فى المرور أو فى احتلال موقف فلا تسابقه، بل اصبر وكن أرفع منه.

ولا تحرص على إيقاف سيارتك فى ظل بيتك أو بيت جارك بحيث تمنع مرور السابلة قرب الحائط، فترتضى لسيارتك الظل، وللناس الحر.

وقم فى السيارة الحافلة للمرأة وأعطها مكانك، ولو كانت سافرة، ولا تزاحم عند الركوب، ولا تضايق قارئ الجريدة الجالس إلى جنبك بالنظر فى جريدته.

* وفي استعمال الهاتف: لا تطل الكلام، ولا ترفع صوتك تظن أن المكالمة يقتضيها ذلك، ما لم يكن الجهاز رديئاً. ودع صاحبك ينام إذا انتصف الليل أو قارب، لا تزعجه بمكالمة، ولا بعد الفجر.

ونربأ بأنفسنا أن نستعمل هاتفاً عامًّا تشغله النقود بإدخال سلك مثلاً بدلاً منها، فإن ذلك من سماجة العامة.

واذكر اسمك لمن تكلمه إن لم يعرفك، لا تتشبه بمن يطلب من المجيب أن يعرف من هو.

وإذا اتصلت ببيت أخ لك ولم تجده وأردت إخبار أهله باسمك فلا تذكر كنيتك فقط إذا شاركك آخرون بها، فيلتبس الأمر عليه.

ونكره إذا نمت للقيلولة أو في الليل أن ترفع سماعة الهاتف لساعات عديدة، تريد أن لا يتصل بك أحد، إذ ربما كان الأمر جادًّا ومهمًّا، وخير من ذلك أن لا تفتعل الحياء، وأن ترجو إخوانك أن لا يتصلوا بك في وقت الراحة.

* وفي المساجد: نكره للداعية أن يصحب الصغار جدًّا من أولاده، وأن يلبس قميصاً يكشف عن أسفل ظهره إذا ركع.

وإذا خرجت من الصلاة بيدك نعلك فلا ترمه على الأرض وأنت واقف، لأنه سيحدث ضوضاء، ويثير وسخاً في وجه من انحنى للبس حذائه، ولكن اقترب بيدك من الأرض بالانحناء وضعه برفق.

وفي المشي والتنقل: نكره أن لا يدخل الماشي جميع قدمه في النعال، فتصفق بالأرض مع كل خطوة. أو أن يضيف قطع حديد إلى أسفل الحذاء كما يفعل الفقراء الذين يمنعون سرعة استهلاكه بذلك، فإن الحديد يصدر صوتاً مزعجاً، وبخاصة في الممرات الطويلة في أبنية المستشفيات والجامعات والدوائر.

وإذا سرت عند جدار وقاربت نهايته عند زاوية ينعطف فيها الطريق فابتعد عن الجدار، إذ ربما فاجأتك عند الانعطاف امرأة، بل أي سائر، وقد يكون ما تكره، من وسخ أو غيره.

والدعاة أجلّ من أن يبصقوا في الشارع، إلا في ناحية فيها تراب عند الضرورة، واستعمال المناديل واجب، ولا نلقي زجاجة فارغة في الشارع أو علبة أو منديلاً مستعملاً.

ونعبر من عند الأماكن المخططة ما استطعنا..

ولا نضغط أزرار جميع مصاعد العمارة استعجالاً، فإن ذلك يؤذى المستعملين الآخرين، بل لنا صبر وتؤدة.

ولا نشارك امرأة فى مصعد عمارة سكنية وبخاصة من نساء الجيران، فإنها تستحى.

* وفى اللغة والتعبير وعموم الكلام: لسنا نكثر أن نقول: يعنى، يعنى. أو نقول: ها، ها. بل نجزم ونعوّد ألسنتنا الاسترسال والطلاقة.

ولسنا مثل رجال يقلدون نساءهم فيقولون: بيت أم فلان، بل نقول بيت أبى فلان.

وليتكلم أحدنا أمام أبناء غير بلده بالفصحى، ليفهموه، لا بلغاتنا العامية.. ونكره أن يأتى المتكلم باصطلاحات أجنبية ضمن كلامه لغير ما ضرورة أو توضيح زائد، فإن العربية جزء من شخصية المسلم.

ونكره أن يحرص الرجل على لقب عائلته إذا كان قبيحاً.

ولنحذر أن نستعمل فى كلماتنا لفظة لا ريب فيها فى بلدنا، وهى فى بلاد أخرى شتيمة أو عيب أو تدل على قلة احترام، كقول السورى للمخاطب: ولك، أو: لك، وهى عند العراقى وغيره أقرب إلى الشتم الذى يلزمه الحد.

وقوم من الدعاة أخطاؤهم النحوية لا تغتفر، ولا يعرف حتى رفع الفاعل أو المبتدأ، وفى مقدورهم أن يتعلموا ويخففوا لحن لسانهم، لكنهم لا يفعلون، وهذا من أقبح الكسل.

ولا يجرى على شفاهنا لفظ مكروه مستقبح أو تشبيه فيه لمز، ونبتعد عن تعابير العامة. والبعض يظن أن ورود هذه الألفاظ فى الأمثال الدارجة التى يستعملها الناس يرفع عنها الكراهة، وليس كذلك الأمر، بل أمثالنا عفيفة أيضاً مثل سائر كلامنا.

وإذا شرحت واقعة فلا تطنب فى ذكر التفاصيل التى لا نفع فيها؛ فإن روح المقابل قد تزهق قبل وصولك إلى رواية جوهر المسألة.

وتجنب كثرة التعليق على الحوادث اليومية الصغيرة التى تراها ويراها أهل

مجلسك، مما يحدث في الدوائر الحكومية والمقاهي والأسواق، كشجار بين موظف ومراجع، واختلاف رواد المسجد مع المؤذن في دخول الوقت، وأمثال ذلك، فإن التعليق على هذه الحوادث شغل الفارغين، وعليك أن تمر بهذه المناظر مروراً سريعاً حتى كأن عينك لم تر، وأذنك لم تسمع، واشغل أهل مجلسك بعلم نافع وكلام مفيد.

* وفي المطعم والسوق: نحب للداعية أن يمنح شيئاً من المال لفتيان المطعم والمقهى إذا انتهى وأراد القيام، وأن يجزل أجرة الحمال والسائق.

ونحب أن لا يكون الداعية ملحاحاً في مساومة الباعة، ولا أن يضع نفسه في زحمة العامة من الناس إذا تقاتلوا في البلاد الفقيرة على طعام يباع بتخفيض، وليحمل أولاده على القناعة بأكل الميسور، فإنه أحفظ لمكانة الداعية.

* وفي استعمال الكتب: لا تضع خطوطا تحت الجمل المهمة إذا كان الكتاب ليس لك،ولا تجعله بين يدي أولادك ليمزقوا غلافه ويشوهوا صفحاته، وأرجع ما استعرت في وقت مناسب،فإنها حسرة دائمة يتحدث بها أصحاب المكتبات الشخصية الجيدة: أن إخوانهم أضاعوا كتاباً نادراً لهم، أو أتلفوا بعض أجزاء كتاب متعدد الأجزاء.

* وفي سلوكنا في بلاد الغرب: نكره أن يتوضأ المسلم في بريطانيا مثلاً فيغسل رجله في مغسلة مكان عام، كمستشفى أو قسم داخلي، لأنهم يحبسون الماء بها ويغسلون وجوههم، ويستقذرون أن تغسل القدم بها.

ونكره لمن شارك في مؤتمر إسلامي في أوروبا وأمريكا أن يحضر المحاضرات ويتجول بالملابس العربية والطاقية أو عصابة الرأس، فإنها في عرف أهل تلك البلاد ملابس نوم، ولكن ليلبس البدلة مثلاً، أو ليلبس الملابس العربية الرسمية، أي بعباءة وعقال، أو بعمامة.

ونرى أن تأشيرة الدخول إلى بلاد النصارى تعني عقد أمان يوجب على المسلم الزائر لها احترام قوانينها، وبها تكون أموالهم عليه حراماً، ويجب أن يصون ولا يؤذي الممتلكات العامة، من محطات ووسائل نقل وهواتف وحدائق، وأن يعاملهم بالصدق والحسنى، ويعامل موظفيهم وشرطتهم باحترام، وكان بعض من لا فقه له يتوهم جواز إلحاق الأذى بهم والتحايل على حقوقهم، وذلك منكر لا يجوز، واتباع هوى، وجهل وضلال.

ونكره للداعية أن يتكلف فى العفاف ويصل إلى حد الوسوسة فيه، بأن يشيح بوجهه عن الموظفات المتبرجات إذا حادثنه، أو أن يسكت لا يجيب أسئلتهن ترفعاً، فإن حالهن هو مقدار مبلغهن من العلم، وليكن رفيقاً فإنهن فى بلادهن أو شركات أهل بلادهن وهو الزائر، وليجلس من أراد مثل هذا التعفف الصارم فى بيته ولا يكلف أنفس أهل الملل الأخرى ما ليس فى وسعها.

* وهناك متفرقات ذوقية أخرى يحسن بالداعية مراعاتها، وقد تكون متعلقة بحقوق دقيقة يغفل عنها أول وهلة.

فنحن نرى وجوب التزام الداعية بالتسلسل ومراعاة الدور فى الأماكن المزدحمة، الأسبق أولاً، مثل شراء التذاكر ومراجعة الدوائر والمستشفيات والشراء من الأسواق وركوب الحافلات والقطارات وما أشبه، وإذا كان مستعجلاً فليرجو الذين قبله أن يعطوه دورهم.

وفى البلاد التى يسكن فيها الناس الشقق المجموعة فى عمارة واحدة: نرى أن يحرص الداعية على شقة أمامها بحر أو حديقة أو أرض فضاء، بحيث لا توازيه عمارة قريبة؛ لأن احتياطات أهل بيته قد لا تمنع النظر مهما بالغوا، وقد يرى من تساهل مَن يسكن الشقق الموازية مناظر مكروهة لا يحسن أن يراها أهل بيته وولده.

ولا نرى الذهاب إلى مكان فيه فرح أو أنس بعد زيارة تعزية لآخرين فى ساعة واحدة، فإن الحزين الذى عزيته سيشعر بأن زيارتك له إنما هى محض دبلوماسية لا مشاركة لقلبك فيها.

ولا تبادر إلى تعزية من كان مسافرًا بموت قريب له أو بمصيبة، فقد يكون على غير علم بما أصابه، فتأخذه المفاجأة.

ونكره لمن يستمع درساً أو ينصت لحديث أن يسبق المتكلم بذكر نهاية قصة يسردها، أو تسمية كتب يذكرها، كأنه يبرهن على أنه يعرف مثل معرفة المتكلم.

ونكره أن يقلد الدعاة بعضهم بعضًا فى انتقاد أخ لهم من أصحاب الشهامة والخلق النبيل إذا أخطأ، وبخاصة الأخطاء التى سببها قلة خبرته الحياتية، والستر على الساذج خير من التلذذ بتوجيه الكلام المر البعيد عن الرحمة إليه. . . .

* فهذه وأمثالها من القضايا الذوقية تعتبر من مكملات الشخصية الإسلامية،

ومن زينة الدعاة، ويجب أن يحافظ الداعية على سمو منزلته التى وفقه الله تعالى لها، وعلى احترام عقلاء الناس له، وأن يتصف كنبيل وسيد وعين ومفكر وفقيه وزاهد ومرجع، وأن يحمد الله على أن ميّزه عن أهل السوء والغوغاء.

وكان السلف ينكرون الذوق النابى، كعطاء بن أبى رباح التابعى ـ **رحمه الله**، فقد: (حـدَّث رجل بحديث، فاعترضه رجل، فغضب عطاء، فقال: ما هذه الأخلاق، ما هذه الطباع ؟ والله إن الرجل ليحدث بالحديث لأنا أعلم به منه، ولعسى أن يكون سمعه منى، فأنصت إليه وأريه كأنى لم أسمعه قبل ذلك) [(١)].

بل كانوا يعاقبون تلامذتهم على ذلك، مثل محدث:

(أعنفوا عليه فى دق الباب فلم يحدثهم) [(٢)].

عطاء الغدوّ ووسائل السمو..

فيا ترى: أنحصل على هذا النموذج الكامل الفريد ؟

وهل يسع الداعية بعد حصاره بدوائر الحلال والحرام، والمكروهات والمندوبات، والفكر والأخلاق، والانضباط والالتزام، أن يكون على تسعين صفة أخرى من المروءة يفعلها، وتاركاً لألف صفة من خوارمها، تعففاً وسموًّا، إذ الناس ـ أكثر الناس ـ لها يفعلون؟

قد يستصعب البعض ذلك، وتأخذهم رأفة بالدعاة، وإشفاق ورحمة، لما فى المثالية من عناء ورهق، ولكننا نظل نصر على هذا النمط من التحليق العالى، وهى صفات وأنماط لابد أن تظهر فينا، ولابد أن نحييها.

ويستعين الداعية بعد التوكل على الله بوسائل ثلاث لترويض نفسه:

* بالمطالعة فى كتب الأخلاق الإيمانية والطرق الإحسانية، مثل: مدارج السالكين، وتهذيب إحياء علوم الدين، إذ إن الكثير من هذه الأذواق تشهد لها السنة وسيرة الأجيال الراشدة المهدية الأولى.

* وبالمطالعة الأدبية والنظر فى دواوين الشعر، فإن أكثر الشعراء لهم أحاسيس رقيقة مكنتهم من اكتشاف الأذواق الرفيعة.

* وبالمخالطة الاجتماعية لأهل الفضل وأبناء العوائل الأصيلة والعلماء والكتاب

(١) طبقات ابن سعد ٥ / ١٦٩.
(٢) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم جـ ١ / ق ١ / ٢٦٧.

وأبطال الحروب وقدماء المعلمين، والخروج من مجتمع الدعـاة إلى المجتمع الواسع، فإن فى أشراف الناس بقية خير وافر وإن قصروا عن إدراك معنى الدعوة ووجوب الانضـمام إلى رهط الدعاة.

ولكن مع كل ذلك، ومع إمكان هذه الاقتباسات الخيرية، فإن الدعوة تبقى ذات ميزة فريدة، إذ إنها تأبى أن يذوب فى معانيها كل الذوبان وأتمه من لم ينخرط فى سلوكها أول شبابه، فتطبعه بطابعها الخاص الذى لا يمكن أن يحوز مثله من يأتيها بعد تجاوز سن الشباب الأول، من التواضع والبساطة والسماحة، وكمال العفاف وعمق التآخى، ووفرة البذل، والمبالغة فى صدق اللهجة، وتبقى فى المتأخر بقية مهما حاول ومهما بلغ فى العلم، وهذه الظاهرة يصعب وصفها والتدليل عليها، وإنما تحس بالمعاملة والتجريب، ومن ذاق عَرَف.

نحن صُنّاع الحياة....

إن معترضاً قد يعترض على هذا التشدد، وعلى طلب هذه المنزلة العالية من الأخلاق والأذواق والبراءة من العيوب، ويقول: يصح أن نطلبها مـن الأعيان، لكن ما شأن عامة الدعاة ؟

ولـيس ذلـك بصـواب، فإن الضـرورة إن جـعلت الدعاة طبقات، فإن واجب الدعوة جعل كل داعية قائدًا لجموع من الناس فى مدينته أو من أهل مهنته أو من قبيلته وقرابته وجيرانه.

* نحن دعاة الإسلام قادة الحياة، ونريد أن نبدل التيار ونعاكس الهدم ببناء، ولن يكون ذلك إلا بمقارعة فكرية وإصلاح اجتماعى وتهذيب أخلاقى ومصادمة سياسية ومسابقة اقتصادية، ولن يقوم بذلك غير نفر على هذا النمط من النبل والتعفف، وعلى هذا الطراز من الذوق الرفيع، وهذا التنزه عن المكدرات والمكروهات، ومهمة بناء الحياة لا تنتظر إذنًا ولا تحتكرها طبقة ولا تلزمها صفة زعامة، بل هى مهمة كل من آمن ووعى وانتمى.... أن يعمل صالحًا.